

الناصر... من القدس القديمة... الى عمارة الفقراء

للشيخ ناصر صباح الأحمد الصباح مواقف إنسانية عديدة، فقد اعتاد متابعة أخبار العالم من إذاعة ال BBC البريطانية في ذلك اليوم استمع الى " نعمة " من فلسطين تتحدث عن معاناتها مع الفقر، وحملها المفاجئ بعد طفلها الخامس لتذهب الى الطبيب للتخلص من ذلك الحمل بدافع ضنك العيش والحاجة ليقابل الطبيب طلبها بالرفض ، والحقيقة التي لم تكن تعلمها " نعمة " أنها حامل بخمسة أطفال ليصبح لديها عشرة أبناء، بالنسبة الى الشيخ ناصر أن أم تتخلص من أبنائها بدافع الفقر انسانياً أمراً غير مقبول ، على الرغم من صعوبة تحديد مكان نعمة في فلسطين لكن بإصرار وإلحاح الشيخ ناصر استطعنا الوصول لها للوفاء باحتياجات اسرتها الأساسية وخاصة كفالة تعليم العشرة أطفال ولم تعلم " نعمة " من تكفل بسد حاجتها وأبنائها منذ 2010 إلا بعد وفاته رحمه الله .

أما قصة " سناء " - شاهدتها الشيخ ناصر على قناة الجزيرة الفضائية، فهي من القصص المؤلمة لما حصل لأهالي المدينة القديمة بالموصل والتي فُجِع أهلها بسبب حرب داعش، سناء وجدت نفسها تعيل 22 حفيداً بعد أن قتل التنظيم أولادها الخمسة - ومسؤولة عن اعانة أربعة بنات أرامل مع أبنائهم ، وأمام فاجعة سناء بفقدان أبنائها والمهمومة بحاجات أحفادها وبناتها وزوجها العاطل عن العمل، بادر الشيخ ناصر لرفع المعاناة عنها دون أن تعلم حتى يومنا هذا من هو .

لم تقف علاقة الشيخ ناصر بالمستضعفين عند حد تقديم يد العون لهم بل تعدت ذلك بكثير الى الرغبة بالاندماج معهم والسكن في أحيائهم الشعبية واحترام قيمهم وثقافتهم .

إنَّ تكوين (ابو عبدالله) الفكري والجمالي منذ ريعان شبابه وهو طالب علم في مدرسة المطران الواقعة في احد أحياء القدس القديمة، لا شك أنه ترك بصمات واضحة على نظرتة للتاريخ الاسلامي وما قبل الاسلام .

فهو لم يكتف بإحاطة نفسه بمقتنيات من عصور سابقة يشهد بقيمتها الجمالية والآثرية القاصي والداني بل امتد هذا الشغف لأن يقتني بيوتاً قديمة إيماناً منه بضرورة ترميمها واعادة تأهيلها لتكون مسكناً له ولأسرته وبهذا العمل النبيل حافظ على كثير من البيوت القديمة التي كانت آلية للسقوط في المحرق ودمشق وحلب وطشقند والقاهرة، وأعطى بذلك مثلاً حياً بأنَّ عاشق التاريخ عليه مسؤولية الحفاظ على المنجزات الثقافية للحضارة الانسانية، فالتاريخ الذي سكنه منذ ريعان شبابه أصبح له سَكناً .

للشيخ ناصر إنتماء لثقافة العمارة التاريخية واحترام للمباني المحلية في أي بلد، استشعرت ذلك بعد أن حثني على قراءة كتاب " عمارة الفقراء " لصديقه (الأب الروحي له كما كان يطلق عليه) الفيلسوف المعماري المصري " حسن فتحي " ، حينئذٍ أدركت بأن له مذهبه الجمالي العمراني الخاص الذي يحترم ثقافة العمارة التقليدية، ويرى أن المتعة بالسكن تأتي من البساطة وعدم التكلف ، وبذات الوقت آمنت ان قدرته الإبداعية

على التصميم سوف تجد دائماً طريقها الى شيء ما ، وأي بيت يشتريه وكان فيما مضى شيئاً غيره يستهزئ به أو يتجاهله يجعله فجأة شيئاً آخر يفخر به الجميع .

حدثني عن مصنع الحليب الروسي القديم المهجور منذ الأربعينيات ، الذي اشتراه في " طشقند " وانه ينوي الى تحويله الى بيت ، وقد فَعَلَ لأفاجئ بأنه كَيَّف تصميم البيت مع بقاء أجزاء من قطع المصنع بزواياه رغبةً منه بإبقاء ذكريات مصنع الأربعينات وهذا ما أسماه " بيت المصنع " الذي كان مصنعاً والآن بيتاً ، ولم يقتصر الأمر على " بيت المصنع " بل هناك كوخ الفلّاح من حجر الطوب الذي أبقى طرازه القديم دون أن يمحي أو يتجاهل ما صنعه الفلّاح في بناء بيته ، مستمتعاً بممارسة هواية اعداد الطعام لضيوفه في مطبخه الخارجي " بالليون " أمام نهرة الجاري الذي يقطع " بيت صباح " .

أما البيت الذي عكس روحه ومزاجه وهويته فهو البيت الذي بأحد أحياء القاهرة القديمة . في عام 2012 بعد أن انتهيت من زيارتي للمتحف الاسلامي بالقاهرة ، قررت الذهاب الى ذلك البيت كما أوصاني – ولكن فوجئت برفض سائقي سيارات الأجرة الذهاب بي الى هناك كون أن منطقة البيت شعبية (الباطنية) – لذا اضطررت الى الذهاب سيراً على الأقدام لأرى بيتاً قديماً متهاكاً لا معالم له دون أبواب أو نوافذ – وظل يحدثني عن هذا البيت بشغف وأن الشيخة حصة تشرف على التصميم وأعمال الترميم ، كان فرحاً ومبتهجاً بهذا البيت بعد انتهاء أعمال ترميمه وبناءه وليس لسعادته وصف في ديسمبر 2019 بعد عودتي من الأقصر وأسوان مروري على بيت الباطنية لأتصل به وأنا هناك وأبلغه بأنني رأيت " تحفة التحف " .

المكارم وحشيمة الضيف من ابرز صفات الشيخ ناصر هذه السمات لازمته سواء بحضوره أو غيابه ، لقد كان دائماً يفاجأ ضيوفه بجوده وعطاءه اللامحدود – تجوّل بأحد فرجان مدينة المحرق بمملكة البحرين – أعجب ببيت فطرق بابه كعادة أهل البحرين استضافته صاحبة البيت ، طلب منها شراء بيتها فرفضت ، مرت السنوات على ما يبدو أن " أسماء المطر " صاحبة بيت المحرق كانت امرأة كريمة ، أوصت ورثتها بعد وفاتها إن رغبوا ببيع البيت أن يباع الى " الشيخ ناصر بن صباح " ونال مراده وأطلق على البيت تقديراً لمالكته الأصلية " بيت أسماء " ، دعيت من قبل الشيخة مي آل خليفة رئيسة هيئة البحرين للثقافة والآثار لإفتتاح أحد المشاريع الثقافية بالمحرق الملاصقة " لبيت أسماء " ، تبادلنا الحديث مع " عائشة المطر " سألتني أين أقيم فأجبت ببيت الشيخ ناصر بالمحرق فقالت " بيت جدي خاطري أشوفه " ، فأتصلت مباشرة بالشيخ ناصر ونقلت له رغبة " عائشة " – فرحب بالجميع أجمل ترحيب قائلاً " لولوة شرعي البيان وحياه الله عائشة وكل ضيوف الشيخة مي في بيت أسماء " .

هذا هو الشيخ ناصر الانسان البسيط المتواضع السمع الزاهد الكريم .

اللهم اكرمه كما أكرمنا – انك أكرم الأكرمين

